

الهوية في الأدب السعودي المترجم
من إلبترو-سرد إلى الإلكترو-بوح
د / عبدالله بن علي الأسمرى
الأستاذ المشارك بقسم اللغة الإنجليزية-كلية اللغات والترجمة-
جامعة الملك سعود
aasmmary@ksu.edu.sa

في عام 1905 م أصدر ديفيد هوقارث David George Hogarth كتابه ذائع الصيت "التغلغل في جزيرة العرب Penetration of the Arabia" وفيه يتحدث عن تلك البقعة من الأرض التي لا تصل أخبارها إلى العالم الغربي إلا عن طريق بعض الرحالة الذين- كما يقول- يعرضون حياتهم للخطر من أجل أن يحظوا بخبر أو قصة عن صحراء جرداء يلفها الغموض ويعيش أهلها في بيئة قاسية. يرى هوقارث أن هناك سبباً يدفع هؤلاء الرحالة إلى المجازفة ويكمن في السحر الذي يلفه الغموض، فهنا الصحراء العربية برمزياتها الشديدة وهنا القصص التي غدت مخيلة العقل الغربي الذي وجد في الصحراء غواية تذكره بشهرزاد وشهريار وغيرها من الأساطير التي استوطنت الذاكرة الغربية ونسجت هوية أولى لمن يقطن هذه الأرض.

إن سؤال الهوية شائك ومعقد والإجابة عليه لا تقل تعقيداً عن المفهوم ذاته. يرى باحثون أن تعريف الهوية بسؤال من أنا I who am ؟ خاطئ ولا يصح إذ أن ذلك يدخل في مسائل الذات الواحدة أو الشخصية الواحدة التي ربما تشترك مع غيرها في محيطها ببعض الخصائص والسمات وتختلف في أخرى. إن الهوية- كما تقرر كيث وودورد Kath Woodward في كتابها "مسألة الهوية: الجندر، الطبقة الاجتماعية، الأمة" - تستدعي بحث السمات التي يشترك فيها مجموعة من الأفراد الذين يشكلون طيفاً

واحدًا . إننا بوعي كبير نتماهى مع الأشخاص الذين نرتبط معهم برباط اللغة مثلاً ،
إذ أن اللغة تتسج خيوطاً من الهوية لا سبيل إلى نكرانها. قل مثل هذا على محددات
أخرى مثل الدين والعرق والطبقة الاجتماعية والحيز الجغرافي.

في مقالة هامة بعنوان "ما بعد الهوية beyond identity" يُعرّف كلاً من برييكر Brubaker
وكوبر Cooper الهوية على ثلاث مستويات. الهوية بمعناها الواسع strong sense والذي
يرى أننا لا نستطيع دراسة الواقع بمعزل عن سؤال الهوية وإن رؤية الأشياء والحكم
عليها لا يتم إلا من خلال منظار الهوية. المستوى الثاني لا يقلل من أهمية الهوية في
دراسة الواقع ولكنه يتوسط في ذلك ويجعلها في قائمة أخرى من عدة عوامل سياسية
واقتصادية واجتماعية تشكل الفرد وتبين سماته. الرأي الثالث ينظر إلى أن الهوية في
النهاية لا تعني شيئاً لأنها مفردة شديدة الغموض وتتخذ في الغالب ذريعة لفرض
ممارسات ذات دوافع سياسية أو أيديولوجية.

لا شك أن مصطلح "الهوية" ينوء بحمولات ابستمولوجية عدة لا سبيل إلى
الوقوف عليها واستجلاء كنهها ولكن عندما يقع في أيدينا مصطلح من المصطلحات
فإننا نلتمس معناه إما في قواميس اللغة أو دوائر المعارف التي تجود علينا أحياناً وتضن
أخرى. عند البحث في مفردة "الهوية identity" في قاموس "ويبستر Webster" الشهير
فإننا نقف على تعريفات متفاوتة في الدلالة والمعنى والوظيفة. إن الهوية عبارة "عن
مجموعة من الصفات التي يشترك فيها مجموعة من الأفراد في مجتمع من المجتمعات".
وفي موضع آخر يشير القاموس إلى أن الهوية عبارة عن "تماثل بين أنماط تشكل حقيقة
موضوعية".

هناك أيضاً صعوبة مفاهيمية في مقارنة مصطلح مثير للجدل مثل الهوية.
يكتنف المصطلح الكثير من الغموض وسوء الفهم. يذكر باترك هوغان Patrick
Hogan في كتابه "الهوية الشخصية والأدب personal identity and literature" أنه لا بد
من التفرقة بين الهوية القطعية categorical identity والهوية الشخصية personal identity.
الهويات القطعية لا سبيل للإنسان أن ينسلخ عنها أو يتخلص منها مثل لون بشرته

وجنسه (ذكراً كان أم أنثى) ولغته التي ينطق بها. أما الهوية الشخصية فتتعلق بتلك التي يكونها الإنسان بعد حين مثل جملة الآراء والأفكار والتوجهات التي يؤمن بها ويُعرف من خلالها والتي تكون- في بعض الأحيان- عرضة للتبدل والتغير. لقد قدم لنا أمين معلوف في كتابه ذائع الصيت "الهويات القاتلة" الهوية كهيئة الفهد المفترس الذي يفتك سواءً ترك حراً طليقاً أو طُورِد. في نظر معلوف أن الهوية قدر الإنسان ولكنها يمكن أن تتحرف انحرافاً قاتلاً كأن يرى الإنسان أن من تمام الحفاظ على هويته أن يعمد إلى طمس هوية الآخرين. إن مبدأ الإلغاء والتهميش لهوية الآخر المختلف ماضٍ في طريقه على الرغم من شمس التنوير التي نادى بقيم التعايش بين الأفراد الذين يحملون هويات مختلفة.

في هذه الورقة سوف أقف على موضوع الهوية في الأدب السعودي المترجم من خلال عرض لبعض آراء النقاد وقراء الأدب السعودي الذي تُرجم خلال العقود الماضية مع حصر ذلك بالأدب المترجم إلى اللغة الإنجليزية وذلك لأنني لا أجيد لغة أجنبية سواها من جهة ومن جهة أخرى أنها تبدو لي أكثر لغة تُرجم إليها الأدب السعودي. ونظراً لضيق الوقت فإنني سوف أتحدث عن أربعة أعمال أدبية سعودية تُرجمت إلى اللغة الإنجليزية وحظيت بنوع من الاهتمام دون أن نغفل حقيقة أن هناك العديد من الأعمال الإبداعية التي ترجمت إلى الإنجليزية أو إلى لغات عدة وحظيت باهتمام كبير من القارئ الغربي.

إن وجود أدب ساخر في بيئة صحراوية شديدة القسوة من المفارقات التي يحتفي بها العقل الغربي صانع الهوية ومصمم نسيجها. لقد عنون كلايف هولز وفيليب كينيدي لكتاب حوى ترجمات لبعض أشعار الشاعر "حميدان الشويعر" الذي تُرجم شعره إلى اللغة الإنجليزية بـ "شعر نجد الساخر-مقطوعات شعرية من قلب نجد القرن الثامن عشر". إن وجود كلمة "ساخر" في العنوان يمثل مفارقة لا تخطئها عين. إذا كانت الصحراء بما تحمله المفردة من حمولة سوسيوثقافية طافحة بمعانٍ من قبيل

^٣ . معلوف، أمين. (٢٠٠٤). الهويات القاتلة. ت. نهلة بيضون. بيروت: الفارابي.

^٤ Shuway'ir, H., Kurpershoek, M., Saad Sowayan, Clive Holes, & Philip F. Kennedy. (2017). *Arabian satire: Poetry from 18th century Najd*. New York: New York University Press.

القسوة والشدة والحياة المستحيلة هي أبعد ما تكون عن جوهر السخرية الذي يستلزم حياة وادعة وروحاً مرحة تنشأ عادة في المدن والحوضر الغربية التي تشكلت نتيجة لسيادة قيم التنوير وبزوغ عصر الصناعة وولادة عصور الرفاه والذعة. أضف إلى ذلك أن البيئة الصحراوية المتزمتة-أو هكذا يُنظر إليها-تتفر من السخرية لأنها تقوض ركن من أركان الحياة في هذه البيئة وهو الجد في كل شيء ومجانبة الهزل والمزاح. تمثل خماسية "مدن الملح" عملاً ثقافياً بديعاً لا يمكن أن نفسره أو نقف على كنهه ما لم ننظر إليه عبر منظار الثقافة والهوية. ثمة بقايا من قصص تسكن جوف الصحراء التي يلفها الغموض والسحر ولكن ثمة أيضاً مفارقة لافتة. فالصحراء القاحلة التي يلفها الظلام الدامس ليلاً وتزجر فيها الرياح نهاراً ويضرب البدوي فيها أكباد الأبل مرتحلاً عبر فضاء لا نهائي تحبى في جوفها ليس الأساطير الساحرة التي تغري العقل الغربي بل أنهاراً من الذهب الأسود الذي يتدفق شلالاً يروي عطش العالم للطاقة ، تلك الطاقة التي أنارت للإنسان مدنه وأدارت متاريس مصانعه العملاقة ونقلته من عصر الزراعة إلى عصر الصناعة والتقانة. ثمة تناص بديع بين عنوان رواية "مدن الملح" وعنوان آخر وهو "مسيرة الملح" ذلك الحدث الهائل الذي وقع في الهند إبان الانتداب البريطاني وفيه أن المهاتما غاندي قاد مسيرة طويلة استمرت أيام للاحتجاج ضد سياسة بريطانيا الاحتكارية للملح الذي كان يمثل ثروة هائلة يستمتع بتجارها المستعمر ويحرم منها الفلاح الهندي البسيط. في مدن الملح ثمة هوية تشكلت حول "وادي العيون" الذي يتدفق منه الماء شريان الحياة لعرب الصحراء. إن الماء وما يمثله من حاجة وجودية ضل عبر الزمن مادة للحياة تتقاتل بسببها المجتمعات العربية. الماء في الثقافة العربية صنوان الحضارة. فقد قامت حول النيل والفرات حضارات عديدة ، فحيث ثمة ماء ثمة حياة وحيث كان هناك حياة كان هناك حضارة. إن اقتران هذه الرواية بالنفط وحديثها عن التحولات التي تعصف بالمجتمع نتيجة اكتشافه تجعل من بعض النقاد الغربيين يصفونه بأدب النفط petro-fiction أو أدب الرأسمالية النفطية . petro-capitalism

احتفى العالم الأدبي بالرواية التي عدت من الروايات المئة العظيمة التي انتجها العقل البشري. أن أكبر عرض حظيت به خماسية مدن الملح على يد الروائي والكاتب القصصي جون ابدايك John Updike والذي تحدث عن الرواية وشخصها وثيمتها الرئيسية وربط ذلك كله بمشاعر الشرق ضد كل ما هو غربي. يصف ابدايك الرواية بأنها أشبه بعاصفة رملية نرى من خلالها أشباح ووجوه يعترضها الألم والحزن ويسكنها شعور بالخزي والعار من تسلل الغربي إلى تلك البقعة المعزولة والتي تمثل عزلتها رصيماً ثقافياً تفاخر به وتستमित في الدفاع عنه. تسود مجتمع الصحراء قيم بعينها مثل التعاون والتكاتف فيما بينها ولا تستقيم الحياة بدون هذا الشكل من أشكال العمل الجماعي. يبدأ ابدايك عرضه لهذه الرواية بداية فيها مسحة من الغرابه والطرفه:

"يشكل اكتشاف النفط في المناطق المتخلفة والقاسية المحاذية للخليج الفارسي حدثاً جيولوجياً لا يوازيه في ضخامته إلا تفجر بركان كراكاتوا. أصبح شيوخ القبائل الذين كانوا يقيسون ثرائهم بعدد الجمال والخيول التي يملكون ينافسون كبار الأثرياء في العالم في الثروة".

بعد هذه المقدمة الفجة يدلف ابدايك إلى لب الرواية ولكن من خلال النقد الشديد للمؤلف الذي استحدث شخصاً روائية لا تستثير لب القارئ ولا تعلق بذاكرته ولا يستطيع التعرف على الدوافع التي تحرك المشهد السردي في هذه العمل. يستطرد ابدايك في القول أنه وخلال ستمئة صفحة من الرواية لا يستطيع أن يجد عملاً أدبياً ذا شخصية روائية تميز الرواية عن غيرها من أشكال السرد الأخرى كالقصة والحكاية الأسطورية التي يتداولها الناس في جلسات السمر. أشار ابدايك إلى أن "منيف" ليس إلى حكاية يسرد قصصاً حول موقد النار الذي يجتمع الناس حوله لترجية الوقت. إن محصلة الرواية-كما يقرر ابدايك- وثيمتها الرئيسية يمكن

اختصارها في موقف العربي الممتعض من الوجود الغربي في المنطقة ولو كان لغرض استخراج النفط.

في الوقت الذي كتب ابدائك هذا العرض لرواية منيف كانت مطابع جامعة الملك سعود تستعد لطرح كتاب "أنطولوجيا الأدب في شبه الجزيرة العربية" وهو كتاب هام يترجم للإنجليزية لشعراء وأدباء من المملكة العربية والخليج واليمن. تذكر سلمى الخضراء الجيوسي التي حررت الأنطولوجيا في مقدمتها البديعة أن هناك أغفلاً لرصد الحركة الأدبية في شبه الجزيرة العربية لأسباب عدة وأن المترجمين والمحررين لهذه الأنطولوجيا ذهلوا من أصالة النصوص وتشعب مواضيعها وكمية الجرعة الحداثية الموجودة فيها التي تحاكي المعايير العالية في الأدب. إن تنوع النصوص وتنوع مواضيعها جعلت من الجيوسي تصرح أن الأدب العربي ذا بنية واحدة ويعبر عن هموم مشتركة وي طرح قضايا ذات أبعاد اجتماعية وإبداعية متقاربة إن لم تكن متطابقة. إن هذه النصوص التي عرفت بها الجيوسي في الأنطولوجيا تمثل-كما ذكرت- قمة النضج الفني لهؤلاء الشعراء والأدباء والقاصين على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم الفكرية والفنية. لكنها لا تغفل دور النفط في التحولات الاجتماعية التي عاشتها بلدان الخليج العربي حيث يمثل ذلك الحدث تحولاً هائلاً في الأنماط المعيشية للمجتمعات الخليجية وبالتالي أثر في انتشار التعليم النظامي الذي حول المجتمعات من قبائل تتداول الفنون شفاهة إلى أمة تدون وتبداع وتنشر. تتحدث الجيوسي في موضع آخر من المقدمة إلى جوانب دينية وجغرافية جعلت من الجزيرة العربية والمملكة العربية السعودية في قلبها بقعة استقطاب للاهتمام العالمي وهي المكانة الدينية والجغرافية. الأهمية الدينية للجزيرة العربية معروفة ولا حاجة للحديث عنها هنا ولكن الجانب الجغرافي على درجة كبيرة من الأهمية فإذا كان جمال حمدان في كتابه ذائع الصيت "شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان" قد أشاد بالخصائص الطبيعية لمصر مكاناً وزماناً فإن مثل ذلك ربما يقال عن جغرافية المملكة العربية السعودية التي تتوسط قارات وبلدان ذات أهمية تجارية وسياسية وطبيعية تجعل منها حلقة

الوصل بين الشرق المتحفز والغرب المتعطش لأسواق جديدة وفتوحات معرفية واقتصادية حديثة.

إن الهوية المرتبطة بالنفط والذهب الأسود واستدعائها للحديث عن المعطى الإبداعي للكاتب في السعودية لم تعد -كما يبدو لنا- ذات وهج في النظر إلى الخطاب الإبداعي في هذه البقعة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وكان لزاماً على مكنة الدعاية العملاقة وأقنية الإعلام ومنافذ النشر أن تستثمر في هذا الحدث وتتسج خيوطاً تشكل لبوساً لهوية أراد صانعوها أن تكون باراداييم جديد للنظر إلى المجتمع وأدبه وهذا ينقلنا إلى عمل إبداعي آخر لروائي سعودي لم يكن له أن ينتشر دون عباءة ايدلوجية بعينها.

بعد عقد من الزمن على رواية منيف يطرح الروائي تركي الحمد ثلاثيته الشهيرة "أطياف الأزقة المهجورة" فتحدث ضجيجاً صاحباً في الداخل السعودي وصدىً لذلك الضجيج في الخارج. في عرضه للثلاثية يذكر جيمس بوكان James Buchan الروائي والمحرر الأدبي في صحيفة الغارديان البريطانية أن ثمة موجة من الأعمال الإبداعية السعودية بدأت تنافس بقوة على كافة الصعد العربية والعالمية. يصرح جيمس بوكان أن "الأشكال الإبداعية الجديدة والأعمال الأدبية بدأت تأخذ طريقها إلى المملكة هذه البقعة شديدة التدين". إذا نحن أمام لبوس جديد وهوية يراد لنا أن نعتمرها ونُعرف بها بعد أن فك ارتباطنا بالنفط. على غلاف رواية "الشميسي" كتب الناشر أن هذه الرواية "من أكثر الأعمال الأدبية إثارة في الشرق الأوسط منذ سنين".^٦ لم يجهد بوكان نفسه في الغوص في بنية النص وحركة الشخصيات الروائية في هذه الثلاثية وإنما أكتفى باستدعاء بعض من الأحداث وربطها بالهوية المتخيلة التي نسج خيوطها الإعلام بعيد الحادي عشر من سبتمبر. في مقالة علمية في دورية literature & Aesthetics كتب أحمد شعبول مقالة مسهبة حول الثلاثية. لفت انتباهي في هذه المقالة عبارة ذكرها بين معقوفتين وهي أن هذه الثلاثية عمل أدبي "مثير ومزلزل explosive" لا يقارعه سواه

^٦ . <https://www.theguardian.com/books/2004/nov/13/featuresreviews.guardianreview19>

^٧ . Hamad, T. (2003). *Adama*. London: Saqi.

في العصر الحديث. إن وصف عمل أدبي بالملزّل لا يمكن أن يفهم دون سؤال الهوية المتخيلة عن هذه البيئة من الأرض وأهلها والتماهي الكبيرين ما يكتبه الناقد الكبير وما تضح أقيّة الإعلام الضخمة.

في عام 2005م دفعت الروائية والطبيبة الشابة رجاء الصانع بعملها الأدبي الأول "بنات الرياض" إلى دار نشر الساقى لطباعتها. أحدثت الرواية عند نشرها دويًا هائلًا حدّت بالعديد من البارزين في المجتمع إلى الحديث عنها سواءً تقريضاً لها أو خطأً منها. كان للضجة التي أثارها الرواية دوراً بارزاً في تهافت دور النشر الغربية إلى الطلب من الروائية -ودار النشر- أن يترجم هذا العمل إلى اللغة الإنجليزية ولغات أخرى. في الرواية تبزغ هوية جديدة، أو هكذا رآها الخيال الغربي الجامح، هوية تستدعي ليس شهرزاد واحدة بل أربع: سديم وغمرة ومليس وميشيل. إن الاستقبال الصاحب الذي حظيت به الرواية لا يمكن أن نفهمه دون سؤال الهوية. يبدو أن طيف شهرزاد قد عاد، يضرب بجناحية أفق المشهد الأدبي بسحره الذي يتوسل السرد سبيل للبوح. إن البوح هذه المرة ينساب عبر أقيّة الكترونية في شكل رسائل بريدية لاهبة. إن استقبال هذا العمل وتشريحه لم يكن بناءً على معايير الأدب الروائي الرفيع الذي ينظر إلى جوانب مثل متانة السرد وحيوية الشخص وخصوص القصة التي بنيت عليها الأحداث. إن التعلق والافتتان بالبيئة البدوية الصحراوية القاسية التي علق عليها هو غارث التقطتها الروائية الشابة رجاء الصانع التي كتبت مقدمة بديعة للنسخة الإنجليزية من روايتها ذكرت فيه أن القارئ الغربي شغوف بمعرفة ما يدور في هذه البقعة من الأرض حيث الصحراء العربية والأساطير التي حُكيت عن ليال الأنس العربية.

في مستهل كتاب "الإستشراق" يقرر إدوارد سعيد أن مصطلح "الشرق" صنّاعة أوروبية إذ أنه منذ القدم أضحى الشرق في مخيلة الأوربيين مكاناً يرمز إلى السحر، إلى القصص الطافحة بالحب والرومانسية، إلى الأماكن المسكونة بالخيال. هذه ربما كانت الصورة في عهد سعيد ولكن معلوف يحذرنا من أن الهوية كائن متحرك وغير

ثابت وعليه فإننا يجب علينا أن نرصده لا أن نتملص منه، ونفهمه لا أن نغمض العينين عنه.